

توطئة

الحضارة هي أنفس وأنبيل وأخلد ما للأمة من تراث في جلاع علومها وآدابها وفنونها ، ولئن كان من صنع الطبقة الممتازة فيها - إنه للإنسانية جمعاء لافرق بين عرق ولغة وعقيدة ، أوحاجز من زمان ومكان ، مادامت تشارك فيه على أقدارها متأثرة ومبدعة ومؤثرة ، وتتوارث أفضله وتبنى عليه في سبيل تطويرها وتفاهمها وتكاملها .

وقد كان للعرب والمستعربة والذين دخلوا في الإسلام تراث ومشاركة وإبداع منذ أقدم العصور ، ولكنه لم يصبح عميقاً شاملاً متبلوراً إلا بالإسلام ؛ فالإسلام مدّ فوحوه من مكة إلى الشرق والغرب مستقراً في بعض بلدانها ، ماراً أو مجاوراً بعضها الآخر . وقد دخل فيه كثيرون ، واتسع سماحه - ولا سيما في عهد حكامه من العرب - لغيرهم من أصحاب العقائد . وكان هؤلاء علوم وآداب وفنون فأدخلوها فيه ، وجمعوا بين علومه وبينها ، واتخذوا العربية لغة الكتاب لأدائها ، فاستوعبتها وحلّت محل الفارسية والسريانية والقبطية واليونانية واللاتينية من فارس إلى جبال البرانس ، وتجاوزتها إلى غيرها من لغات أوروبا وحملت الدول الإسلامية - وهي لغة الدين في العالم الإسلامي - على استبدال حروفها بحروفها ، حتى استوعبت تراث الإسلام استيعاباً لم يتبأ لمعظم اللغات الشرقية التي دان أهلها بالإسلام كالفارسية والتركية والأوردية ، أو لأخواتها من اللغات السامية كالعبرية والسريانية والكلدانية ؛ فكونت - في العصر الوسيط - حلقة بين تراث اليونانية القديمة وبين اللاتينية الحديثة أرسيت عليه أوروبا نهضتها ، وأبدعت منه تراثاً ؛ حتى إذا تهيأت لنا استعادته بنينا عليه نهضتنا .

وظهر على طرفي النهضتين المستشرقون ؛ فتناولوا تراثنا بالكشف والجمع والصون والتقويم والفهرسة ، ولم يقفوا منه عندها فيموت بين جدران المكتبات والمتاحف والجمعيات ؛ وإنما عمدوا إلى درسه وتحقيقه ونشره وترجمته والتصنيف فيه ؛ في منشئه وتأثره وتطوره وأثره وموازنته بغيره ، واقتلبن عليه مواهبهم ومناهجهم وميزاتهم ، مصطنعين لنشره المعاهد والمطابع والمجلات ودوائر المعارف والمؤتمرات ، حتى بلغوا فيه ؛ منذ مئات السنين ، وفي شتى البلدان ، وبساتر اللغات - مبلغاً عظيماً من العمق والشمول والطرافة وأصبح جزءاً لا ينفصل عن تراثنا ، ولا تورج الحضارة الإنسانية إلا به - وقد عرف الغرب منه أصالتنا فيها - كما لا تصلنا

بالعصر الحديث علوماً وآداباً وفنوناً - صلة أشد من لغات الغرب .

فإن نحن طوينا هذا الجهد تنكرنا للأمانة العلمية في البحث عن الحقيقة الموضوعية - مع أن نشره لا يتضمن الموافقة عليه والرضا عنه جميعه - فكأننا نأبي أن نكون تراثنا جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الإنسانية التي هي ملك لنا كما هي ملك لهم ؛ وإن طى نشاطهم يبعث على الريبة وسوء الظن والقطيعة ، في حين أن الحضارة الإنسانية لا تقوم لها قائمة إلا على التعاون في نشر ذخائر كل أمة في العلوم والفنون والآداب على تنوعها وأوجه الشبه والاختلاف فيها تعاوناً يقصر المسافات النفسية بينها تقصير المخترعات للمسافات الجغرافية لخلق تضامن وجداني فكري خلق في ائتلاف صادق شامل مستمر .

وإذا كنا لا نفرق بين أن ينجلي لنا تراثنا ويحتل مكانته من الحضارة الإنسانية على أيدي العرب أو بالتعاون مع المستشرقين - فقد اعترفنا لهؤلاء بفضلهم ونشرناهم في الناس ، وهو بعض حقهم علينا .

غير أن تحقيق تراجم المستشرقين - منذ مئات السنين - في شتى البلدان وبساتر اللغات ، وذكر مكان وتاريخ آثارهم : المحققة والمترجمة والمصنفة وإحصاء ومائل نشرها : في المعاهد والمكتبات والمتاحف والمطابع والمجلات والمجموعات والمؤتمرات - ليس بالأمر اليسير الهين ؛ إذ شغل المستشرقون بنا عن أنفسهم أكثر مما زعمه ديجما - مؤلف تاريخ المستشرقين في أوروبا بالفرنسية (١٨٦٨ - ١٨٧١) ، والقاتل : « والمستشرقون قعدوا عن تصنيف تاريخ الاستشراق لشدة تنافسهم فيما بينهم وترصد بعضهم البعض الآخر » (١) ، وتركوا مصادر الاستشراق موزعة على المجلات والحوليات وفهارس المكتبات والمنوعات - عند وفاة أحدهم أو سرد مصنفاتهم أو تكريم أعلامهم - مبعثرة بين كتب التراجم الخاصة بالشرق ودوائر المعارف العامة وهي غير مستكلمة لا تذكر سوى أعلام من الأموات في بضعة أسطر ، وبين كراسات الوقفات لنفر من المشهورين . ولقد ضم أعلامهم في كتب مستقلة ، ولكنها على نقاسها لم تتناول الاستشراق إلا من زاوية : فبعضها صنف في الأغراض فسقط دى ساسى بين ثلاثة وعشرين رقماً في صفحات متفرقة (وهوامش) متعددة ؛ وغيرها على بلد المضيف أو القومية ، فنسب كازانوفا الفرنسى إلى إيطاليا على الرغم منه ، ومعظمها اقتصر على بضعة من الآثار مغفلاً مكان نشرها ، فذكر لكراوس ثلاثة وله عشرات . فلما كان عام ١٩٤٣ صنف آربرى كيباً عنوانه : المستشرقون الإنجليز ، ثم توالى على التأليف في الاستشراق

بالألمانية - فوك : الدراسات العربية في أوروبا اشتمل على ٨٧ مستشرقاً (١٩٥٥) وليمان : عصر من الاستشراق تتناول بالترجمة ١٥ مستشرقاً (١٩٥٥) ثم شريباتوف : الاستعراب في الاتحاد السوفيتي ، بالروسية (١٩٦٠) .

* * *

ولمّا رأيت حظ المستشرقين من العربية أقل من نصيبهم فيها - سلخت في أعداد الطبعة الأولى (١٩٣٧) عنهم ستين ولمّا تفرّج بما أحبيته لها ، وبذلت قصارى جهدي في الثانية فصلح بعض أمرها . ثم شجعتني نفاذا على ثالثة خصصتها بخمس ساعات في اليوم طوال ست سنوات ، منقباً عن التراث الشرق من فجر الحضارة إلى اليوم ؛ مما أطال المقدمة محصباً نشاط المستشرقين فيه حتى في مقالاتهم ، ولعظمها قيمة دراسية في ذاتها محاولاً توسيع آفاقه التي خفي بعضها عنا . وقد طبعت من الطبعة الثالثة خمسين نسخة أرسلتها إلى الملحقين الثقافيين ، والأصدقاء من أعلام المستشرقين لتحقيق ما فاتني تحقيقه في مظانه ، وقد نوهت به في تراجمهم - وأعدته واستعدته مرات استيفاء لتراجم المستشرقين وعناوين آثارهم وأماكن طبعها وتواريخها إلا القليل منها الذي لا سبيل إليه .

وهكذا صدرت الطبعة الثالثة وقد أوفت على كثير مما تمنيته لها ، وأصاب عملي المتواضع فيها أهدافاً أربعة هي : اتصال تراثنا بالحضارة الإنسانية اتصالاً وثيقاً منشأً وتأثراً وأثراً ، والكشف عن كنوزه في الغرب مجموعة مصونة مفهومة ، وتحقيق المستشرقين لها وترجمتها ومقارنتها بنظائرها والتصنيف فيها ، ووضعها بالعربية لأسهل عليهم الرجوع إليه ، فلو أنه كُتب بالفرنسية مثلاً لوجد مستشرقٌ سكسوني أو سلافي لا يفهمها - ولن يفتقد فيه ما لا يعرفه - أما وهو مستشرق - وجل المستشرقين مستعربون - فسيفق عليه ويقرأ فيه تقديرنا لجهده واعترافنا بفضلته .

* * *

ولئن أوفت الطبعة الثالثة على الكثير مما تمنيته لها - إنى لم أقف عنده ؛ وإنما سعيت لاستكمالها فأهديتها لدى صدورهما إلى الملحقين الثقافيين والأصدقاء من أعلام المستشرقين ، شاكرًا لهم كريم تعاونهم فيها مستزیداً من دقيق ملاحظاتهم عليها للطبعة التي تليها . وما إن نفذت الطبعة الثالثة وهممت بالرابعة حتى كررت مساعي السابقة ، وقد استجد في عالم الاستشراق طوال ثماني سنوات ، الوافر من التصنيف والتحقيق والترجمة إلخ . . . غير أن توفيقى في الطبعة الرابعة كان أصعب منالاً منه في أية طبعة سابقة ، وكأنما العالم قد

تبدّل ، على أيدي بعض الملحقين الثقافيين ونفر من المستشرقين ، غير العالم : فثمة نسخ لم يتلقها أصحابها على الرغم من إرسالها مضمونة . ومن الذين تلقوها من اعتذر عن مراجعتها ، ومن ساومني عليها ، ومن دلتني على من يكتب عنه ، ومن وعد ، وبعد شهور أخلف ، ومن أبحثني من السفارة إلى المركز الثقافي والمركز إلى المنظمة ، فأعادتنى - لأنها مؤسسة خاصة - إلى ممثلة الدولة أى السفارة ذاتها - هو فن الرحلة - وفي سفارة أخرى لم أقابل مرة واحدة في أثناء ترددي عليها ملحقاً بعينه ، وفي غيرها يمثل الملحق الثقافي موظفة محلية سليطة اللسان لا يعوزها سوى نرجيلة بين يديها !

وأخيراً اتصلت بالسفراء أنفسهم للحصول على عناوين مستشرقهم المعاصرين التي لم أعر عليها في دليل جمعيات الاستشراق ؛ ثم كتبت إلى كل منهم لتزويدي بترجمته وآثاره ، أما من سبقهم فقد عكفت على مراجع الاستشراق بين الدوريات - كالمجلة الآسيوية (١٨٢٢ - ١٩٧٦) - والفهارس - وفي طليعتها الفهرس الإسلامي (١٩٠٦ - ٧٧) وقوائم المكتبات لتحقيق ترجماتهم وآثارهم .

وبين الطبعة الأولى والرابعة مئات الرسائل وتوابعها بشتى اللغات ، وإن غلبت عليها الفرنسية والإنجليزية والألمانية والعربية - رأيت أن أقدم بين يدي القارئ - بعد أن ذكرت فضل كل من قدم لي بدأً عن أية طبعة ، في موقعه من الفصل التابع له - نماذج منها بحسب تواريخها على شكل تذييل للجزء الثالث من هذا الكتاب .